

الوداع الأخ

رزأهما به الدهر.

كان ذلك منذ عشر سنين، حينما خرج الشيخان يحملان على كاهلهما أثقال السنين الطويلة، يتوكآن على وحيدهما.. يمسك بيديهما تارة، وتارة يحمل على ظهره صرة فيها بعض الخبز، كان يحملها أبوه، لترد عنهما غائلة الجوع.. ظل هذا الشاب يقود والديه وأزيز الرصاص يمزق السكون المروع، ويحترق أسماعهم كأنه عريضة شيطان مريد.. تنطلق من مدافع اليهود الذين حاصروا القرية، وأخذوا يطلقون رصاصهم على الأبرياء، ليتمكنوا من طردهم ليدخلوها آمنين. وبرغم عزلة هؤلاء الناس وضعفهم، فقد أبوا وعز عليهم أن يتركوا تلك الأرض الطيبة، التي اختلط ترابها بعرقهم ودمائهم، ملكا مشاعا، ولقمة سائغة، لهؤلاء المشردين الأوغاد، الذين ظلوا أزمانا متطاولة تطاردهم لعنة الله والناس، ويشردهم غضبهم.. وحز في نفوسهم أن يطلقوا سيقانهم للريح، ويديروا ظهورهم لهذه الأرض يدنسها الغاصب اللئيم، فأجمعوا أمرهم على أن يبذلوا دماءهم رخيصة على هذه الأرض المقدسة، يردون عنها الدخيل بكل ما يملكون من قوة وعزم.. وما كان على أحمد إلا أن يشارك بكل ما أوتي من قوة بني قريته في رد هذا العدو الغادر، برغم حاجة أبيه الملحة إليه.

ترك أحمد والديه يتحاملان على

الحزينة.. وينفخ في ناي أحزانهم.. ولكنها كانت بالنسبة لهؤلاء الأطفال سحرا يجذبهم من عالمهم البائس المنكود إلى عالم غريب من الرؤى والأحلام الحلوة. ويمسح بيده الحانية كل ما ارتسم على جباههم من آلام الجوع والشقاء والحرمان.. كانوا يجدون فيه ملاذا رحيمًا يدفنون فيه آلامهم وشقاءهم.. وما هي إلا لحظات حتى يغلب الكرى عيون الجميع، ويسدل عليها حجب الداكنة، ويذهب بهم إلى عوالمه البعيدة الموحشة. وفي ركن من أركان هذه القرية كان يقبع شيخ كبير، انطفأ النور من عينيه أو كاد، تكوم على نفسه، والتحف بلحاف قديم، قد حفرت عليه السنون بأظافرها الصلبة سطورا بارزة من البؤس والشقاء.. وكانت تقبع إلى جانبه عجوز حطمتها الأيام.. وسطرت على وجهها بمدادها الأسود خطوطها العريضة.. وعمق هذه الخطوط ما رامها الدهر به من نوائب وأرزاء، إذ امتدت يده القاسية إلى أعز ما تملك، فسلبها إياه، وتركها فريسة للضياع والعدم.

كان هذان العجوزان يجتران ذكرياتهما، يقطعها أحيانا كثيرة نشيج خافت، يصدر من أعماق العجوز تارة، وأنين يقطع نياط القلب يأتي من بين حنايا الشيخ وضلوعه المهدمة، تعقبها بعض قطرات من الدمع السخين، تنزفها مآقيهما، لوعة وحسرة على ما

انحدرت الشمس نحو الغروب، تودع بأشعتها الباهتة حشاشة يوم من أيام الشتاء؛ لتترك الظلام يطبق بحلخته على الكون المتجمد، وليسكت الطيور الصادحة التي أمضت يومها في سعادة وبشر، حتى تأوي إلى أعشاشها في صمت، قلما تشق سفره همسات ناعمة خافتة، كأنها بقايا أصوات آتية من قرار سحق، تحسبها لخفوتها حشرة ملتان أو أنات مكوم.

غلف السواد الكون. وأسدل ستره على القرية الصغيرة الوداعة في أحضان الوادي الأخضر، وأخذ الكرى يتسلل خفية إلى عيون الأطفال، الذين يتطلعون بلهفة إلى البرق وهويفري الظلام بسيف سناه، الذي يكاد يذهب بالأبصار ويصيخون بأذانهم إلى زمجرة الرعود وهي تبدد الصمت، وتمزق السكينة.. ويتحسسون بأنوفهم وهي تتنسم هبات الرياح الباردة، يقابلونها بشغف سرعان ما يتوارون منها منكمشين كالقنافذ تحت الأغصان البالية، تصطك أسنانهم فتسمع لها صوتا لا يلبث أن يذهب البهجة بهذا الانقلاب الخطير في الكون، لولا ما كانوا يرقبون من سقوط المطر الذي راحوا يتشوفون انسكاب قطراته على سطوح المنازل ونوافذها المصنوعة من الصفيح.. يترقبون تلك الأنغام العذاب التي يعزفها المطر وكأنه موسيقى مبدع يسكب ألعابه على قيثارة المشردين

بقلم:
راشد حسين سليم

نفسيهما، تتنابهما المخاوف والهواجس من كل جانب، ليشارك في دفع الغاصب الدخيل.. وغابا عن هذا الوجود بما فيه من أصوات الرصاص والقنابل المزمجرة في آذانهم، ليعيشا مع وحيدهما جنبا إلى جنب، يتبعان حركاته، ويرقبان خطواته على درب القرية.. زحفه وتقدمه، وقوفه وتراجع.. يدفعان العدو بكل قوتهما وحولهما عن فلذة كبدهما.

لم يرد هذين الشيخين إلى واقعهما إلا الأصوات العالية والصخب المرتفع.. والبكاء الحزين.. والصيحات البائسة التي أخذت تختلط ببعضها، والتي تبين منها بعد لأي هذين الناس بمثل هذه العبارات.. وقف إطلاق الرصاص.. عاد محمد بن إسماعيل.. وسالم وأحمد ابنا عبدالرحمن.. وعبدالغني بن سعيد.. ومحمود بن سليمان.. و.. و.. و.. تناهت هذه الأصوات إلى آذان الشيخين، وأخذا يسترقان السمع على أحد هذه الأصوات يدق مسامعهما بنبا عودة وحيدهما.. وظلا على هذه الحال إلى أن انبعثت من بين الأصوات همسة مجنونة، سرعان ما اخترقت مسامعهما.. لم يرجع أحمد بن يونس.. لقد استشهد.. وما أن استقرت هذه الكلمات في مسامع الشيخين حتى انهارت قواهما وسقطا على الأرض هامدين، لولا أنين متقطع لاهت، ينبعث من أغوارهما وهما يهذيان.. أحمد..



أمران أمرهما حلو

شعر:

سعيد ساجد الكرواني

ترجو الشهادة فاقترب
هذا طريقك للجنان
جدد موثيق الهُدَى
واطرح أمانِي الأمان
وارفع برأسك عاليًا
أشرق فثمة حسنيان
أرتال موكبًا سَرت
يا عاشق الحور الحسان
الروح ريح عاصف
ودم الفدا سَيْلٌ عَوَان
لبنان تفضحه العدى
والقدس ترزح في الهوان
أقدم! فلا نامت إذن
- رغم القضا - عَيْنُ الجَبَان
واجعل ولاءك لاله
لعائناً فوق الهوان
والعزم يهتف بالعدى
الكل فان.. الكل فان
الروح ريح عاصف
ودم الفدا سَيْلٌ عَوَان

أحمد.. أين أنت يا أحمد.. أنا والدك يا أحمد.. أريد أن أراك.. ولدي أحمد: قتلك اليهود؟! لن أراك يا أحمد؟! واختلطت هذه الأصوات بنشيجهما المتقطع.. وما إن أتم الشيخ هذه الكلمات الدامية، حتى راح في غيبوبة أيقظه منها صراخ وعويل ارتفعا إلى أجواء الفضاء.

شهد الجميع يعالجون مصائبهم تحت أستار الظلام، وقد بدأت خيوط الفجر تتفقت من بينها، وتترامى على صفحة الكون العريض وتتجمع في الفضاء، وأخذت الأشباح تتجسد رويدا، حتى مزقت خيوط الضياء ستائر الظلام، وأخذ المشردون يعودون إلى هذه القرية بعد أن تركها اليهود، ليتبينوا جثث الشهداء ويواروهم التراب.. وعاد الشيخ يبحث عن وحيدة ولكنه لم يجده.. فاندفعت الأصوات من أعماقه باكية حزينة.. ولدي.. أين أنت يا أحمد؟! عد إلي يا ولدي!! وتهالك الشيخ على الأرض وظل على هذه الحال حتى أحس يداً تمتد إليه، محاولة أن تسنده في رفق وحنان، فإذا به يقذف صرخة مجنونة.. ولدي.. أحمد.. هل عدت إلي؟ وما كاد يلتفت إلى صاحب تلك اليد حتى تبينه.. فعاد يغمغم من جديد.. أحمد.. ولدي.. لن تعود.. ولن أراك مرة أخرى.. ثم نهض وسار وحيدا بعد أن راح فلذة كبده شهيدا آخر في قافلة الشهداء، التي عبرت أرض فلسطين، وسقتها بدمائها الطاهرة الزكية.

ونزح الشيخ مع القوم، تاركين قريرتهم الوداعة نهبا للوحوش.. تودعهم الطيور التي استقبلت يومها باكية حزينة، وكأنها تعاهد هؤلاء المشردين وهي تقول لهم لن نترك هذه القرية.. سنبقى فيها رغم أنف اليهود.. وسننتظركم هناك.. هناك فوق الروابي الخضراء!!!

